سياقات خطاب الصحابة في القرآن الكريم
دراسة تداولية
(سورة التوبة أنموذجا)

الباحث / ياسر السعيد علي نورالدين
باحث ماجستير في الدراسات النقدية والبلاغية
بإشراف اد/ وفاء أبوالسعود

عدد ٥٥ يوليو ٢٠٢٠ م

سياقات خطاب الصحابة في القرآن الكريم – دراسة تداولية (سورة التوبة أنموذجا)

The contexts of the speech of the Sahaabah in the Holy Quran (Pragmatic Approach) (swrt altawba Example)

المقدمـــــــــــــــــة

فهذا بحث بعنوان :" سياقات خطاب الصحابة في القرآن الكريم، دراسة تداولية (سورة التوبة أنموذجا)", وقد تضمن ثلاثة مباحث، تناولت في المبحث الأول : حديثا مختصرا عن سورة التوبة والتعريف بها وأسمائها وأهدافها،

وفي المبحث الثاني تناولت مراحل السورة والمميزات الفنية واللغوية لها ، وفي المبحث الثالث: تناولت سياقات خطاب الصحابة ودلالاتها من خلال خمسة سياقات, السياق الأول : رسم العلاقة بين المؤمنين والمشركين, والسياق الثاني تناولت فيه العلاقة بين المؤمنين وأهل الكتاب, وفي السياق الثالث تناولت بالحديث توبيخ الله – عزوجل – للمتثاقلين عن الجهاد, وفي السياق الرابع, درست الولاء والبراء بين الفريقين, ثم كان السياق الخامس, وفيه تناولت بالحديث الجهاد في سبيل الله – تعالى – والحث عليه

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي, وهو المنهج المناسب لهذه الدراسة العلمية والذي يمكننا من استقصاء الحقائق ووصفها وتحليلها وتفسيرها، بالإضافة إلى المنهج التاريخي الذي سيساعد هو الآخر على تتبع مسار الدرس التداولي منذ نشأته, وكذلك المنهج النفسي , إذ ان الحالة النفسية على اختلافها من طرف لآخر هي المسيطرة على كل من المسلمين والمشركين عند نزول آيات سورة التوبة ٠

وفى نهاية البحث أتبعت ذلك كله بخاتمة ذكرت فيها أهم ما توصل إليه البحث من نتائج واستنتاجات تخدم حقل البحث العلمي، متبعا ذلك كله بثبت بمراجع ومصادر البحث مرتبة بحسب الترتيب الأبجدي, ثم الفهرس العام للمحتويات.

المبحث الأول: في رحاب سورة التوبة

أولا : التعريف بسورة التوبة: سورة التوبة من السور المدنية التي اهتمت بجانب التشريع، وهي من أواخر السور؛ وذلك لما رواه البخاري عن البراء بن عازب من أن : «آخر سورة نزلت هي سورة براءة » [1]؛ فقد نزلت السورة على النبي – صلى الله عليه وسلم– في أثناء عودته من غزوة تبوك، وقد أرسل أبا بكر هذا العام؛ ليكون أميرًا للحج، ويقيم المناسك، فلما عاد أرسل النبي عليا بن أبي طالب؛ ليبلغ عنه ما ورد في السورة من أحكام؛ فقال رضي الله عنه للناس عند جمرة العقبة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ، وَلَا يَطُف بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ»[2].

ثانيا: : مناسبة سورة التوبة لما قبلها: المتأمل في الآيات التي ختمت بها سورة الأنفال والآيات التي بدأت بها سورة التوبة يجد أن بينها مناسبة عظيمة جعلت بعض الصحابة يظنون أنهما سورة واحدة، وقد ذكر غير واحد من أهل الاختصاص بعض هذه المناسبات ومن ذلك أن مناسبة أولِها لآخر الأنفال هو الدعوة إلى البراءة ممن يُخْشَى نقضه للعهود قال(أبو الحسن ابن عمر البقاعي):

«ولما كانت مناسبة أولها –الداعي إلى البراءة ممن يخشى نقضه للعهد– لآية الأنفال، وقدمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتِباه أمرِها على الصحابة في كونها سورةً مستقلةً أو بعضُ السورةِ، فكان ما ذكر من البراءة والتولي شرحًا لآخر الأنفال» [3].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قَوْلِهِ: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١]، الحديث رقم (٤٦٥٤).

(2) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م، (١٠٧/٤)

(3) إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥ه)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الاسلامي، ١٩٨٤م (٢٥٦/٣) .

ثالثا: أهداف سورة التوبة:

قال (أبو الحسن ابن عمر البقاعي): «مقصودها معاداةُ من أعرضَ عما دعت إليه سورة الأنفال، من اتباع الداعي إلى الله في توحيده، واتباع ما يرضيه، وموالاةُ من أقبل عليه وأدلُ ما فيها على الإبلاغ في هذا المقصد قصةُ المخلفين، فإنهم –لاعترافهم بتخلفهم عن الداعي بغير عذر في غزوة تبوك– هُجِرُوا وأُعْرِضَ عنهم بكل اعتبار حتى بالكلام، فذلك معنى تسميتها بالتوبة. وهو يدل على البراءة لأن البراءة منهم بهجرانهم حتى في رد السلام كان سبب التوبة، فهو من إطلاق المسبب على السبب» (١).

كذلك إظهار« ما كانت عليه نفوس أتباع النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزو الروم «وفي هذا الموضوع تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين، وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد، وما قاموا به من أساليب النفاق» (٢).

وبالجملة فإن هذه السورة قد تناولت المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين، والذين هم أشد خطرًا من المشركين، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ومخازيهم، وظلت تقذفهم بالحمم حتى لم تبق فيهم صِفةً ذميمةً إلاَّ ذكرتها ولا مرضًا إلاَّ فضحته وبينت علاجه، وقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام إلى حد جعلهم يتخذون من بيوت الله أوكارًا للتخريب والفساد كما بين الله ذلك في قصة مسجد الضرار فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٣).

---

(٤) السابق، (٢٥٥/٣) .

(٥) عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١٩٧٦، ص: ١١٢ و محمد علي الصابوني، وقبس من نور القرآن دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة، دار القلم, دمشق, ط٢, ١٩٨٨م, (٦/٤)

(٦) سورة التوبة، الآية ١٠٧

المبحث الثاني : مراحل السورة ومميزاتها :

أولا: موعد نزول السورة

كان نزول سورة التوبة في العام التاسع؛ وذلك على ثلاث مراحل:

الأولى: قبل غزوة تبوك. الثانية: في أثناء الغزوة. الثالثة: بعد الرجوع من الغزوة[1].

ومن ثم فهي من أواخر السور نزولًا؛ لذلك فقد اشتملت على أحكام نهائية من شأنها رسم العلاقة الاجتماعية والسياسية والعقدية بين المسلمين وغيرهم من الأمم، كما أن السورة وضعت تصنيفًا للمجتمع الإسلامي ينبني على أساس إيماني، كما أن السورة كشفت عن طبيعة المنهج الدعوي، وبينت مراحل الجهاد في سبيل الله؛ لإقامة المجتمع الإسلامي.

ثانيا: المميزات الفنية واللغوية في السورة:

حينما نتأمل هذه السورة جيدا نجد أن لها العديد من المميزات الفنية واللغوية والتى تميزها عن غيرها من سور القرآن الكريم فمن ذلك:

١- «تعددت في هذه السورة الجمل الخبرية المنفية والمؤكدة والمثبتة منها.

٢- فالجمل المثبتة تدل على أن الله – تعالى – قد توعد المنافقين الذين أخلفوا الوعد بعذاب أليم وقد تعددت صورها واختلفت أنماطها من اسمية وفعلية وشرطية.

٣- تنوعت الجمل المؤكدة وتعددت صورها في السورة الكريمة تارة بإن وتارة بأن وهذا تأكيد من الله – تعالى- على نصره لمن ينصره.

---

[1] عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٥م، (٤٩٧/١)؛ وأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ): أحكام القرآن للشافعي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م، (٦٣/٢) ؛ وأبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: ٥٨١هـ): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، (١٥٨/٧)؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (دط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٤م، (١٠٠/١) .

٤- تعددت الجمل المنفية ب (لا النافية للجنس) أو بـ (ما) فالله – عز وجل – ينفى نفيا قاطعا تواجد المنافقين مع المسلمين في المسجد الحرام لقتال المشركين.

٥- توزعت الجمل الإنشائية بصور متعددة منها الطلبية التي تدل على أن الله – سبحانه وتعالى– هو الآمر الناهي فقد أمر المسلمين ونهاهم عن موالاة المنافقين لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان,

أما غير الطلبية فتتمثل في: جملة النداء فالله تعالى يدعو المؤمنين أن يحذروا من المنافقين وألا يمشوا على خطاهم

يقول صاحب الظلال: « ومع أننا لا نملك الجزم بالمواقيت التي نزلت فيها مقاطع السورة خلال العام التاسع الهجري إلا أنه يمكننا الترجيح أنها نزلت في ثلاثة مراحل:

الأولى: كانت قبل غزوة تبوك في شهر رجب.

الثانية كانت في أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم في ثناياها والثالثة كانت بعد العودة منها.

– وقد تضمنت هذه السورة في المقطع الأول منها من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين تحديدا للعلاقات النهائية بين المسلمين والمشركين في الجزيرة مع ابراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقدية التي يقوم عليها هذا التحديد بالأسلوب القرآني الموحى المؤثر وبتعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة عميقة التأثير» [١].

ويمتاز هذا المقطع في أسلوب آياته بقوة الألفاظ المستخدمة في التأنيب والحض على قتال المشركين ومقاطعتهم في الجزيرة العربية قاطبة ويدل على ذلك الألفاظ المستخدمة مثل:" براءة من الله ورسوله، فاقتلوا المشركين، فخذوهم واحصروهم، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، لا يرقبوا فيكم، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فقاتلوا أئمة الكفر، قاتلوهم يعذبهم الله، فتربصوا

---

(٨) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م ، (١٥٦٥/٣) .

حتى يأتي الله بأمره، إنما المشركون نجس..." إلى غير ذلك من الألفاظ الدالة على الشدة والغلظة تجاه المشركين نظير ما اقترفوه من غدر وخيانة.

– أما المقطع الثاني:

فقد تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب مع بيان الأسباب العقدية والتاريخية والواقعية التي تختم هذا التحديد وتكشف كذلك عن «طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة وعن انحراف أهل الكتاب عن الدين الصحيح عقيدة وسلوكا بما يجعلهم ليسوا على دين الله الذي نزل لهم والذي صاروا به أهل كتاب» [١].ومن ثم جاء من الألفاظ ما يدل على ذلك مثل:(حتى يعطوا الجزية، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، يريدون ليطفئوا نور الله، ولو كره المشركون، هذا ما كنزتم لأنفسكم...) إلخ هذه الألفاظ التي تبث روح القوة والعزيمة في نفوس المسلمين ضد أعدائهم.

– أما المقطع الثالث: فيبدأ بالنعي على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز للغزو فتثاقلوا إلى الأرض وتكاسلوا عن النفير؛ «مما يشي بمشقة هذه الخطوة وهذه الغزوة على النفوس في ذلك الحين» [٢]؛ ولهذا جاءت الألفاظ مشتملة على التأنيب والتهديد والتوكيد المتكرر ومن تذكير المؤمنين بنصر الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم –فجاءت الكلمات قاسية مؤنبة مثل: (إلا تنفروا يعذبكم، يستبدل قوما غيركم، لا تضروه شيئا، انفروا خفافا وثقالا..) فجاءت الألفاظ تأنيبية تهديدية فيها من الوعيد والانكار الكثير والكثير.

ـ أما المقطع الرابع وهو: «أطول مقاطعها ويستغرق أكثر من نصفها في فضح المنافقين وأفعالهم في المجتمع المسلم ووصف أحوالهم النفسية والعملية ومواقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفى أثنائها وما تلاها وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم في التخلف عن الجهاد فضلا عن بث الفرقة والضعف في الصف وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلص من المؤمنين» [٣].

ومن ثم جاءت الألفاظ دالة على ذلك كطلقات نارية تكشف نفاق المنافقين وأصحاب المصالح والأهواء نحو: (لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا

---

(٩) السابق، (١٥٦٦/٣)

(١٠) السابق نفسه، (١٥٦٦/٣)

(١١) سيد قطب، في ظلال القرآن ، (١٩٦٧/٣)

لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة، لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا، ألا في الفتنة سقطوا، إن تصبك حسنة تسؤهم، فإن أعطوا منها رضوا، ويقولون هو أذن، يحلفون بالله لكم ليرضوكم، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة، واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ،....)

– أما المقطع السادس: فيتضمن تقريرا لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيله وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيه «وأنه لا يحل لهم أن يتخلفوا عنه، وفى ثنايا هذا المقطع يرد بيان لما قضى الله به في شأن بعض المتخلفين عن الغزوة مخلصين غير منافقين» [١]؛ ومن ذلك: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، ما كان للنبي والذين أمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى، لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله، وما كان المؤمنون لينفروا كافة، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة، صرف الله قلوبهم، ثم يجيء الختام بالحديث عن صفات رسول الله– صلى الله عليه وسلم – لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ؛

إذن يتضح لنا مما سبق أن السياق العام لهذه السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم في فترة ما بعد الفتح ويصف تكوينه العضوي، كما يوضح الخلل الذي سيطر على المجتمع المسلم في فترة من فترات تكوينه مما أدى لظهور أصناف اتسمت بالشح والنفاق وحب النفس والتردد في الواجبات والتكاليف وهذا ما سيتضح من خلال المبحث التالي.

(١٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ، (١٥٦٩/٣).

المبحث الثالث: سياقات خطاب الصحابة ودلالاتها:

تعددت سياقات خطاب الصحابة في سورة التوبة، وكان لهذه السياقات دلالات متعددة، من خلال السياقات الآتية:

السياق الأول: رسم العلاقة بين المؤمنين والمشركين:

استفتحت سورة التوبة برسم العلاقة النهائية التي تحكم المجتمع الإسلامي في تعامله مع المشركين في جزيرة العرب، كما أبرزت السورة في هذا السياق جوهر العقيدة الإسلامية التي ينبني عليها تأطير هذه العلاقة من خلال البيان القرآني الساطع، وقد جاء ذلك من بداية السورة حتى نهاية الآية الثامنة والعشرين؛ فتناولت الحث على مقاطعة المشركين ومناجزتهم؛ وذلك من خلال الدلالات الآتية:

(١) **تقرير البراءة من المشركين:**

قررت الآيات البراءة من الشرك وأهله، واستباحت دماءهم وأموالهم؛ يقول الله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١] ؛ أي: «قدْ بَرِئَ من إعطائهم العهودَ والوفاءَ لهم، ذلك أن نكثوا»[٢]؛ ومن ثم فقد «أمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبين نبي الله صلى الله عليه وسلم عهد، يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام.

اشتملت الآية الكريمة السابقة على الفعل الكلامي (عاهدتم)؛ وهو فعل يخاطب به المولى – عز وجل– الصحابة رضوان الله عنهم، ويدل من خلال زمنه وصيغته على الدلالات الآتية:– وقوع العهد بين المسلمين والمشركين في زمن ماضٍ على نزول الآية.

- حصول اتفاق على العهد بين الطرفين؛ وذلك من خلال صيغة (فاعل)[٣].

---

(١) سورة التوبة , الآية ١ .

(٢) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م، (٤٢٨/٢).

(٣) أحمد بن محمد الحملاوي (ت: ١٣٥١هـ): شذا العرف في فن الصرف، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، (دط)، مكتبة الرشد الرياض، (دت)، ص ١٦٧ -١٦٨ .

- التزام الصحابة بالعهد حتى نزول الآيات.

(٢)منح المشركين الهدنة:

منح الله في هذه الآيات الهدنة للمشركين؛ وهي هدنة قدرها أربعة أشهر؛ لكي يتهيؤوا لدخول الدين الجديد أو تكون الحرب عليهم؛ قال عزّ من قائل: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ[١]﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله: بَعَثَنِي (أَبُو بَكْرٍ) فِي تِلْكَ الحَجَّةِ فِي مُؤَذِّنِينَ بَعَثَهُمْ يَوْمَ النَّحْرِ يُؤَذِّنُونَ بِمِنًى، أَلاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، قَالَ حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ثُمَّ «أَرْدَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ بِبَرَاءَةَ»، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ يَوْمَ النَّحْرِ فِي أَهْلِ مِنًى بِبَرَاءَةَ، «وَأَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»[٢].

(٣)إعلام الناس بهذه البراءة:

ثم يعلم الله الناس بشأن هذه البراءة من المشركين؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[٣].

(٤)الالتزام بالعهد:

دعا الله الصحابة – رضوان الله عليهم– إلى إتمام العهد لمن التزم به وحافظ عليه من المشركين؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٤] يخاطب المولى – عز وجل – الصحابة الكرام في الآية السابقة، وذلك بالفعلين (عاهدتم)، وسبق بيان ما فيه، وبالفعل (استقيموا)، وتتجلى في هذا الفعل الدلالات الآتية:

---

(١) سورة التوبة, الآية ٢ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قَوْلِهِ: {فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الكَافِرِينَ}، الحديث رقم (٤٦٥٥).

(٣) سورة التوبة , الآية ٣ .

(٤) سورة التوبة , الآية ٧ .

– وجوب الاستقامة في العهد والمحافظة عليه، طالما أن الطرف الآخر ملتزم ومستقيم.

– عدم محاربة المشركين طوال مدة الهدنة وعدم الاعتداء عليهم بأي وجه من الوجوه.

يقول(العكبري): «(فَمَا اسْتَقَامُوا): فِي (مَا) وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: هِيَ زَمَانِيَّةٌ، وَهِيَ الْمَصْدَرِيَّةُ عَلَى التَّحْقِيقِ، وَالتَّقْدِيرُ: فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ مُدَّةَ اسْتِقَامَتِهِمْ لَكُمْ. وَالثَّانِي: هِيَ شَرْطِيَّةٌ كَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] وَالْمَعْنَى إِنِ اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا. وَلَا تَكُونُ نَافِيَةً؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى يَفْسُدُ؛ إِذْ يَصِيرُ الْمَعْنَى اسْتَقِيمُوا لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَقِيمُوا لَكُمْ»[2].

(٥) **المعاملة بعد انقضاء الهدنة:**ثم بين الله سبحانه طريقة المعاملة بعد انقضاء الهدنة؛ وذلك بقوله عز وجل: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

جاء في الناسخ والمنسوخ أقوال متعلقة بالآية الكريمة السابقة منها :

الأول: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ لِقَوْمٍ عُهُودٌ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنْ يُؤَجِّلَهُمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِيهَا فَلَا عَهْدَ لَهُمْ بَعْدَهَا وَأَبْطَلَ مَا بَعْدَهَا وَكَانَ قَوْمٌ لَا عُهُودَ لَهُمْ فَأَجَّلَهُمْ خَمْسِينَ يَوْمًا عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ كُلَّهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

---

[1] ( ) سورة فاطر , الآية ٢ ٠

[2] أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (ت: ٦١٦هـ): التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، (دط)، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (دت)، (٦٣٦/٢).

[3] ( ) سورة التوبة , الآية ٥ ٠

وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

الثاني: رَوَاهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ من أن التأجيل كان أربعة أشهر لمن له عهد، وَلَمْ يَقُلْ فِيهِ أَكْثَرَ وَبِهَذِهِ الرِّوَايَةِ فِيمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ كَالْأُولَى.

الثالث: إِنَّ الَّذِينَ نُبِذَ إِلَيْهِمُ الْعَهْدُ وَأُجِّلُوا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ هُمُ الَّذِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ بِنَبْذِ الْعَهْدِ إِلَيْهِمْ وَتَأْجِيلِهِمْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَنْقُضِ الْعَهْدَ فَكَانَ مُقِيمًا عَلَى عَهْدِهِ وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ أَجْلُ خَمْسِينَ يَوْمًا كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْآيَةِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ قَتَادَةَ[2].

وقد اشتملت الآية الكريمة على عدة أفعال تخاطب الصحابة وقت التنزيل؛ وهي: (اقتلوا)، (وجدتم)، (خذوا)، (احصروا)، (اقعدوا)، (خلوا).

أولًا: الفعل (اقتلوا):الفعل (اقتلوا) فعل جاء بصيغة الأمر التي تقتضي اللزوم، وقد أسند إلى واو الجماعة التي تشير إلى الصحابة، وقد اشتمل هذا الفعل على الدلالات الآتية: وجوب قتل المشركين بعد انقضاء الأشهر الحرم.

- صيغة الفعل (افعل) تقتضي عدم المشاركة؛ ما يعني أن هذا القتل ليس على جهة القتال والمناجزة، بل على سبيل التغلب والتصفية الجسدية المباشرة.
- هذا الفعل يشمل الصحابة جميعًا، ولا يستثني منهم أحدًا، بل كلهم مطالبون بقتل المشركين؛ وهذا مستفاد من إسناد الفعل إلى واو الجماعة.

ثانيًا: الفعل (وجدتم):

الفعل (وجدتم) جاء بصيغة الماضي، لكنه مستقبل المعنى لوقوعه في جواب الطلب (اقتلوا)، وقد أسند إلى تاء الفاعل بصيغة جمع المخاطبين (تم)، وقد اشتمل الفعل على الدلالات الآتية:

---

[1] ( ) سورة التوبة , الآية ٥ .

[2] أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (ت: ٣٣٨هـ): الناسخ والمنسوخ، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، ط١، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٨هـ، ص ٤٨٦-٤٨٨.

- صارت الأرض كلها ساحة حرب وميدان معركة بين المسلمين والمشركين، فالوجد أو العثور على الشيء ليس محصورًا بمكان معين.
- تشتت المشركين وتشرذمهم؛ حتى إن العثور عليهم صار يحتاج إلى بحث.
- تمكن سلطان الإسلام والمسلمين، فلا يخالفهم إلا هارب أو مستخفٍ لا يقوى على مواجهتهم بشكل علني صريح.

ثالثًا: الفعل (خذوا): الفعل (خذوا) جاء بصيغة الأمر مسندًا إلى ضمير الصحابة وهو واو الجماعة، وقد اشتمل على الدلالات الآتية:

-وجوب أسر المشركين في كل مكان وجدوا فيه.

- قوة المسلمين وتغلبهم وسطوتهم.

- رابعًا: الفعل (احصروهم):الفعل (احصروهم) فعل أمر مسند إلى ضمير الصحابة، وله دلالات؛ منها:

- وجوب منع المشركين من بيت الله الحرام. - أسرهم عند التمكن منهم.

- منعهم من التصرف. - التضييق عليهم.

خامسًا: الفعل (اقعدوا):

الفعل (اقعدوا) فعل أمر مسند إلى ضمير الصحابة واو الجماعة، وله دلالات؛ منها: وجوب مراقبة الطرق التي يأتي منها المشركون.

- جواز الأسر بدل القتل.

سادسًا: الفعل (خلوا):الفعل (خلوا) فعل أمر مسند إلى واو الجماعة، وهي ضمير الصحابة، وهذا الفعل له دلالات؛ منها:

- التمكن من المشركين والغلبة عليهم.

(٦) وجوب تحريرهم إن التزموا بتعاليم الإسلام.

(٦) بيان أسباب البراءة:ثم يبين الله سبحانه للمؤمنين الأسباب التي قضت بالبراءة من المشركين؛ وبناء عليها صدر الأمر بقتالهم؛ قال تعالى: **﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾**[1].

[1] ( ) سورة التوبة , الآية ٨

كما ذكرت الآيات أن هؤلاء المشركين لا عهد لهم، وأن على المؤمنين أن يتوقعوا نقضهم العهد؛ ومن ثم فقد رسمت الآيات كيفية التعامل معهم حينئذ، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾[1] .

(٧) حض المؤمنين على القتال:

ثم تحض الآيات الصحابة على قتال المشركين ومقاطعتهم في جزيرة العرب؛ وذلك بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ[2]﴾ .

قوله: **(فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ)** ذكر (الجصاص)أن:

«فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعَهْدِ مَتَى خَالَفُوا شَيْئًا مِمَّا عُوهِدُوا عَلَيْهِ وَطَعَنُوا فِي دِينِنَا فَقَدْ نَقَضُوا الْعَهْدَ وَذَلِكَ لِأَنَّ نَكْثَ الْأَيْمَانِ يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ بَعْضِ الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ إذَا كَانَتْ الْيَمِينُ فِيهِ عَلَى وَجْهِ , وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ سب النبي صلّى الله عليه وآله وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ فَقَدْ نَقَضَ عَهْدَهُ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكفر فَجَعَلَ الطَّعْنَ فِي دِينِنَا بِمَنْزِلَةِ نَكْثِ الْأَيْمَانِ إذْ مَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَجْعَلَ نَكْثَ الْأَيْمَانِ وَالطَّعْنَ فِي الدِّينِ بِمَجْمُوعِهِمَا شَرْطًا فِي نَقْضِ الْعَهْدِ لِأَنَّهُمْ لَوْ نَكَثُوا الْأَيْمَانَ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُظْهِرُوا الطَّعْنَ فِي الدِّينِ لَكَانُوا نَاقِضِينَ لِلْعَهْدِ وَقَدْ جَعَلَ رَسُولُ اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلم مُعَاوَنَةَ قُرَيْشٍ بَنِي بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ وَهُمْ حلفاء النبي صلّى اللَّه عليه وآله وَسَلَّمَ نَقْضًا لِلْعَهْدِ وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ سِرًّا

[1] ( ) سورة التوبة , الآية ١٢- ١٦ .
[2] ( )سورة التوبة , ١٤ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِظْهَارُ طَعْنٍ فِي الدِّينِ فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ فَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ كَانَ مَنْ أَظْهَرَ سَبَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ إِذْ سب رسول اللَّه صلّى اللَّه عليه وآله وسلم من أكثر فِي الدِّينِ فَهَذَا وَجْهٌ يَحْتَجُّ بِهِ الْقَائِلُونَ بِمَا »[1].

اشتملت الآية السابقة على فعل يخاطب الصحابة؛ وهو (قاتلوهم)، وهو فعل أمر تضمن الدلالات الآتية:

- وجوب قتال المشركين؛ لأن الفعل جاء بصيغة الأمر؛ وهي صيغة تقتضي الإلزام[2].
- صيغة (فاعل) تدل على المشاركة؛ ما يعني أن الحرب سجال بين المؤمنين والمشركين، وقد بدأها المشركون.

(٨) أمر المؤمنين بمنع المشركين عن المسجد الحرام:

ثم يصف القرآن المشركين بأنهم نجس، ولا يصح دخولهم بيت الله الحرام؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[3] .

السياق الثاني: رسم العلاقة بين المؤمنين وأهل الكتاب:

في هذا السياق من خطاب الصحابة بسورة التوبة ترسم الآيات طبيعة العلاقة بين المؤمنين وأهل الكتاب، وتبين الأسباب العقدية والتاريخية التي أوجب شكل هذه العلاقة وخطت صورتها، كما بينت الآيات الانحراف العقدي والسلوكي لأهل الكتاب؛ ويتضح ذلك من خلال الدلالات الآتية:

١. الأمر باستمرار القتال:

أمر الله المؤمنين باستمرار قتال أهل الكتاب الذين بدأوهم إلى أن يظهر عليهم الإذعان لسلطان الإسلام، ويدفعوا الجزية وهم صاغرون؛ يقول المولى

---

[1] أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ): أحكام القرآن، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، (دط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، (٢٧٥/٤-٢٧٦).

[2] العلويّ : الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، (١٥٥/٣).

[3] ( ) سورة التوبة , الآية ٢٨ .

عز وجل: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1] .

نسخت هذه الآية ما قبلها، وفيها «أمر بقتال أهل الكتاب؛ حتى يدخلوا في دين الله أو يفتدوا أنفسهم بالجزية» [2]، جعلها الله – سبحانه وتعالى – «عوضًا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم» [3].

اشتملت الآية الكريمة على فعل يخاطب الصحابة؛ وهو (قاتلوا)، له عدة دلالات؛ منها:

وجوب قتال أهل الكتاب في غزوة تبوك حتى نسخها قوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[4] [5].

- الحرب سجال بين المؤمنين وأهل الكتاب؛ بدلالة الصيغة (فاعلوا) التي تقتضي المشاركة في الفعل.

٢. كشف حيل اليهود في سلب الأموال:

بينت الآيات أيضًا خطة اليهود في سلب أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله، كما أظهرت عاقبة الذين يكنزون الأموال ولا ينفقونها في فعل الخيرات؛ يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ

---

[1] ( ) سورة التوبة , الآية ٢٩ .

[2] قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري (ت: ١١٧هـ): الناسخ والمنسوخ، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٣٣.

[3] أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي (ت: ٣٢١هـ): أحكام القرآن الكريم، تحقيق: د. سعد الدين أونال، ط١، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، ١٩٩٥م، (١٣٣/١).

[4] ( ) سورة المائدة , الآية ٤٨ .

[5] أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري القرشي (ت: ١٩٧هـ): تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، تحقيق: ميكلوش موراني، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م، (٨٥/٣).

لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

أكثر العلماء على «عمومها في أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين» [2]، المقصود بأنهم يكنزونها؛ أي: «لا يؤدون زكاتها كما ذكر ابن عباس – رضي الله عنهما– » [3].

السياق الثالث: توبيخ المتثاقلين عن الجهاد:

عرضت السورة من خلال خطاب الصحابة –رضوان الله عليهم– في السياق الثالث لمسألة توبيخ ولوم المتقاعسين عن الجهاد في سبيل الله حين استنفرهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لغزو الروم، وقد تناولت الآيات المتثاقلين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[4].

اختلف العلماء في عمومه، فمنهم من قال: «إنه أراد به كل المؤمنين، وعند أبي علي الجبائي الآية مخصوصة، كما اختلفوا في وجوب هذا التغير؛ فمنهم من قال: المراد به وجوب النفور إلى الرسول إذا دعا إلى الجهاد وأمر به، وهو الأصح، ومنهم من قال: إن المراد به عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم، وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء، فعلى هذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين، فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، وإذا ثبت ذلك، فالاستدعاء والاستبقاء يبعد أن يكون موجبا شيئا لم يجب من قبل، إلا أن الإمام إذا عين قوما وندبهم إلى الجهاد، لم يكن لهم أن يتثاقلوا عنه، وله ولاية التعيين، ويصير بعينه فرضا على من عينه لا لمكان

---

[1] ( ) سورة التوبة , الآية ٣٤ .

[2] خالد بن سليمان المزيني: المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٦م، (٥٨٦/١).

[3] محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن الخطيب اليمني ابن نور الدين (ت: ٨٢٥ هـ): تيسير البيان لأحكام القرآن، تحقيق: عبد المعين الحرش، ط١، دار النوادر، سورية، ٢٠١٢م، (٣٣٦/٣).

[4] ( ) سورة التوبة , الآية ٣٨ .

الجهاد، ولكن طاعة الإمام واجبة، وإذا لم يكن كذلك وكان من أهل الثغور كفاية، وعلى الإمام أن يفرق في الجهات الأربعة قومًا في كل سنة، يظهر لهم النكاية في العدو، ويمنعهم ذلك من انتهاز فرصة الاحتشاد والاستعداد، وإذا حصلت الكفاية لقوم، سقط عن الباقين، فليس الجهاد على هذا فرضًا على كل واحد، وإنما هو فرض كفاية، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين» [1].

وقد اشتملت الآية على أفعال تخاطب الصحابة؛ وهي: (انفروا)، (اثاقلتم)، ويمكن بيان دلالاتها على النحو الآتي:

أولًا: الفعل (انفروا): الفعل (انفروا) جاء بصيغة الأمر مسندًا إلى واو الجماعة التي تشير إلى الصحابة رضي الله عنهم، وقد حمل الفعل في طياته الدلالات الآتية:

- وجوب الإسراع إلى القتال.
- الخروج مجتمعين.
- الخروج بقوة وحماسة.

ثانيًا: الفعل (اثاقلتم): وهو فعل ماضٍ مسند إلى ضمير الصحابة (تم)، وقد دل الفعل بمعناه المعجمي وصيغته الصرفية على الدلالات الآتية:

- التثاقل والضعف عن النفور للحرب.
- إظهار الثقل والفتور شيئًا فشيئًا.

السياق الرابع: الولاء والبراء:

تناولت سورة التوبة مسألة من الأهمية بمكان، تتعلق بصلب العقيدة، ويترتب عليها الإيمان أو الكفر؛ وهي مسألة الولاء والبراء؛ وذلك من خلال الدلالات الآتية:

١- **البراء من الكفار:**

[1] علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (ت: ٥٠٤هـ): أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي، عزة عبد عطية، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ، (٤/٤٠٣-٤٠٤).

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين ان يبرؤوا من الكافرين، ولو كانوا ذوي قربى؛ قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

جاء في تيسير البيان أنها نزلَتْ فيمَنْ لم يهاجرْ مِمَّنْ أَسْلَمَ وآثَرَ حُبَّ أبيهِ وأخيهِ على حُبِّ اللهِ ورَسولهِ، ولا شَكَّ أن المرادَ بهذهِ الموالاةِ حُبُّهم وحُبُّ أفعالِهم منَ الشِّرْكِ كما بيَّنَها اللهُ تعالى في قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ[2]﴾ ومَنْ أَحَبَّ فِعْلَ مُشْرِكٍ، فقدْ كَفَرَ، ومنْ أَحَبَّ مُشْرِكًا أَكْثَرَ منَ الله تبَارَك وتَعالى، ومِنْ رسولهِ – صلى الله عليه وسلم –، فقد كَفَرَ , ما أن هذه المُوالاةِ ليس مرادًا بها البّر والإحْسان، فقدْ أَوجبَ اللهُ سبحانَهُ ذلكَ في كتابِه العزيزِ فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[3] ، ولو كانَ المرادُ بالولاية هُنا هُوَ البِرَّ والإحسانَ، لما سَمَّاهُمْ ظالِمين، ولا فاسِقين[4].

اشتملت الآيتان السابقتان على أفعال تخاطب الصحابة؛ وهي: (تتخذوا)، (يتولهم)، (اقترفتموها)، (تخشون)، (ترضونها)، (تربصوا).

أولًا: الفعل (تتخذوا):

الفعل (تتخذوا) فعل مضارع مسبوق بـ(لا) الناهية، وقد اتصلت به واو الجماعة التي تشير إلى الصحابة، ومن خلال المعنى المعجمي والصيغة

---

[1] ( ) سورة التوبة , الآية ٢٣- ٢٤ .

[2] ( ) سورة التوبة , لآية ٢٤ .

[3] ( ) سورة البقرة , الآية ٢٧٢ .

[4]- ابن نور الدين: محمد بن علي الخطيب اليمني ابن نورالدين، (ت: ٨٢٥ه)، تيسير البيان لأحكام القرآن، تحقيق : عبد المعين الحرش دار النوادر، دمشق، سوريا، ط١: ٢٠١٢م، (٣/٣٢٣-٣٢٤).

الصرفية فقد دل الفعل على الدلالات الآتية:

– الاتخاذ: لا تجعلوا ذوي القربى أنصارًا وأصفياء من دون المؤمنين؛ فالقرابة الحقيقية هي قرابة الدين والعقيدة.

- الاكتساب: وذلك لما فيه من الجهد والعمل، وكأنه على خلاف الأصل.

ثانيًا: الفعل (يتولى): الفعل (يتولى) فعل مضارع فاعله ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على (من) الشرطية التي تشير بدورها إلى الصحابة، ولهذا الفعل دلالات؛ منها:

- المناصرة. –الاتحاد. –الولاء.

ثالثًا: الفعل (اقترفتموها):

الفعل (اقترفتموها) فعل ماضٍ اقترن بتاء الفاعل للجمع الدالة على الصحابة، وقد تضافرت الدلالة المعجمية للفعل والصيغة الصرفية[1] في الدلالات الآتية:

- الطلب. – الاتخاذ. –المبالغة في الفعل.

رابعًا: الفعل (تخشون):الفعل (تخشون) فعل مضارع اتصلت به واو الجماعة، وهي ضمير هنا يشير إلى الصحابة في هذا السياق، وقد دل الفعل على الدلالات الآتية:

– الخوف. – الإشفاق. – الحذر.

خامسًا: الفعل (ترضونها):

الفعل (ترضون) فعل مضارع أسند إلى واو الجماعة؛ وهو الضمير الذي يشير إلى الصحابة، وهذا الفعل الخطابي له عدة دلالات:

– الرضا. – الاستقرار. – السكينة.

سادسًا: الفعل (تربصوا):

---

[1] لصيغة (افتعل) الصرفية معانٍ وظيفية؛ منها: الاتخاذ، الطلب، التشارك... ينظر: الحملاوي: شذا العرف، ص ٣٢ .

الفعل (تربصوا) فعل مضارع مسند إلى واو الجماعة التي تشير إلى الصحابة، ومن خلال الدلالة المعجمية والصيغة الصرفية (تَفَعَّل)[1]، فإنه اشتمل على عدة دلالات؛ منها:

-الانتظار. – التكلف – التدريج.

٢ – الولاء للمؤمنين:

يجب على المسلم أن يكون ولاؤه لله ولرسوله – صلى الله عليه وسلم– ثم للمؤمنين؛ فولاؤه لهم بعض من ولائه وطاعته لله ورسوله، وقد بين المولى تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[2]﴾.

السياق الخامس: الجهاد في سبيل الله:

تناولت سورة التوبة سياق الجهاد أيضًا؛ وذلك من خلال خطاب الصحابة – رضوان الله عليهم– وبينت السورة شروط الجهاد؛ ومنها:

(١) <u>الكفاية والمقدرة:</u>

فقد أعفى الله من الجهاد الضعفاء الذين لا يجدون ما ينفقونه في سبيل الله؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]،

<u>٢ –الاستطاعة المادية:</u> وهي تتمثل في توفير الزاد والسلاح والمركبة التي تحمله للوصول إلى ساحات الحرب وميادين القتال، فإن لم تتوافر هذه الإمكانات لدى المجاهد، سقط عنه الفرض؛ يقول المولى عز وجل: **﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ**

---

(١) لصيغة (تَفَعَّلَ) عدة معانٍ وظيفية؛ منها: الاتخاذ، التكلف، التجنب، التدريج... ينظر: أحمد بن محمد الحملاوي (ت: ١٣٥١هـ): شذا العرف في فن الصرف، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، (دط)، مكتبة الرشد، الرياض، (دت).، ص ٣٣ وما بعدها.

[2] ( ) سورة التوبة , الآية ٧١ .

[3] ( ) سورة التوبة , الاية ٩١ .

مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[1] .

(٣)الأصل في الجهاد أنه فرض كفاية:

الأصل أن الجهاد فرض كفاية[2]؛ فإذا قام به البعض، سقط عن الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿.. فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3].

ويكون الجهاد فرض عين[4] في ثلاث حالات؛ منها: إذا هاجم الأعداء أرضًا إسلامية، فحينئذ يتعين الجهاد على كل مسلم رجلًا كان أم امرأة، فإن لم يستطيعوا التغلب على العدو، فإن الفرض ينتقل إلى من حولهم من المسلمين، ثم إلى الذين يلونهم، حتى يشمل الفرض الأمة كلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [5].

اشتملت الآية السابقة على أمر الله – سبحانه – المؤمنين بأن« يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار في الدار والبلاد والنسب، وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدة، والجهاد واجب لكل الكفار، وإن كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهم وأقدم، ثم الأقرب فالأقرب» [6].

الآية السابقة اشتملت على فعلين يخاطبان الصحابة، وهما (قاتلوا)، و(اعلموا).

---

[1] ( ) سورة التوبة, الآية ٩٢ .

[2] فرض الكفاية: ما يلزم جميع المسلمين إقامته ويسقط بإقامة البعض عن الباقين كالجهاد وصلاة الجنازة. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (: ٨١٦هـ): التعريفات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م ص ١٦٥. .

[3] ( ) سورة التوبة, الآية ١٢٢ .

[4] فرض العين: ما يلزم كل واحد إقامته ولا يسقط عن البعض بإقامة البعض، كالإيمان ونحوه. السابق، نفسه.

[5] ( ) سورة التوبة, الآية ١٢٣ .

[6] أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ): نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ص ٣٤٩.

فأما الفعل (قاتلوا) فقد سبق بيان ما فيه، وأما (اعلموا)، فهو فعل بصيغة الأمر مسند إلى واو الجماعة التي تشير إلى الصحابة، وله عدة دلالات:

- العلم، والدراية. – الاطمئنان واليقين.

وختاما.... وبعد ما سبق ذكره يتضح لنا تعدد سياقات السورة الكريمة, وتنوع أساليبها لتناسب الحالة , والأحداث التي واكبت نزولها , وتنوع جملها ما بين إنشائية وخبرية , وهذا كله أعطاها تفردا من بين سور القرآن الكريم تمتاز به عن غيرها من السور, نظرا للحالة النفيبة التي سيطرت على كلا الفريقين وقت نزول السورة الكريمة .

إسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٨م ٠
(٢) إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الاسلامي، ١٩٨٤م ٠
(٣) إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ): تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م ٠
(٤) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ): أحكام القرآن للشافعي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م ٠
(٥) أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ): أحكام القرآن، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، (دط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ ٠
(٦) أحمد بن محمد الحملاوي (ت: ١٣٥١هـ): شذا العرف في فن الصرف، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن نصر الله، (دط)، مكتبة الرشد، الرياض، (دت) ٠
(٧) أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري أبو جعفر المصري الطحاوي (ت: ٣٢١هـ): أحكام القرآن الكريم، تحقيق: د. سعد الدين أونال، ط١، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، ١٩٩٥م ٠
(٨) أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي أبو جعفر النَّحَّاس النحوي (ت: ٣٣٨هـ): الناسخ والمنسوخ، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، ط١، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٨هـ ٠
(٩) خالد بن سليمان المزيني: المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٦م
(١٠) – أبو ذؤيب الهذلي: الديوان, تحقيق : أحمد خليل الشال, مركز الدراسات والبحوث الإسلامية, مكتبة لسان العرب , مصر, بورسعيد, ط١,

٢٠١٤م٠
(١١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
(١٢) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ): الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (دط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٤م ٠
(١٣) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد أبو القاسم السهيلي (ت: ٥٨١هـ): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م
(١٤) عبد الله محمود شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١٩٧٦ م ٠
(١٥) عبد الله بن الحسين بن عبد الله أبو البقاء العكبري (ت: ٦١٦هـ): التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، (دط)، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (دت)
(١٦) عبد الله بن وهب بن مسلم المصري أبو محمد القرشي (ت: ١٩٧هـ): تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، تحقيق: ميكلوش موراني، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٣م ٠
(١٧) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٥م ٠
(١٨) علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (ت: ٥٠٤هـ): أحكام القرآن، تحقيق: موسى محمد علي، عزة عبد عطية، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ ٠
(١٩) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (: ٨١٦هـ): التعريفات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م ٠
(٢٠) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري (ت: ١١٧هـ): الناسخ والمنسوخ، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م ٠
(٢١) محمد بن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن الخطيب اليمني ابن نور الدين (ت: ٨٢٥ هـ): تيسير البيان لأحكام القرآن، تحقيق: عبد المعين

الحرش، ط١، دار النوادر، سورية، ٢٠١٢م.
(٢٢) محمد بن علي الخطيب اليمني ابن نورالدين، (ت: ٨٢٥هـ)، تيسير البيان لأحكام القرآن، تحقيق : عبد المعين الحرش دار النوادر، دمشق، سوريا، ط١: ٢٠١٢م، (٣/٣٢٣-٣٢٤).
(٢٣) محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني أبو الطيب البخاري القِنَّوجي (ت: ١٣٠٧هـ): نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، (دط)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م
(٢٤) محمد علي الصابوني، وقبس من نور القرآن دراسة تحليلية موسعة بأهداف ومقاصد السور الكريمة، دار القلم, دمشق, ط٢, ١٩٨٨م
(٢٥)يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد بالله (ت: ٧٤٥هـ): الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٣هـ ٠